دراسة موجزة
عن مقدمة ابن خلدون

بقلم : الأستاذ محمد يوسف
المحاضر في القسم العربي ، جامعة داكا - بنغلاديش

تُطلق "مقدمة ابن خلدون" على المجلد الأول من المجلدات السبعة ، التـي يتـألف منهـا "كتـاب العبر وديـوان المبتـدأ والخـبر في أيـام العـرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهـم من ذوى السلطان الأكـبر" ويشـتمل هـذا المجلد على ما يلي :

أولاً : خطبة الكتاب أو ديباجته ، وتقع في نحو سـبع صفحـات (١) ، وقد ذكر المؤلف ابن خلدون بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بحوث المؤرخين من قبله ، وذكر طوائفهم و وجوه النقص في بحوثهـم ، وأشار إلى الأسباب التـي دعته إلى تأليف الكتاب كله (كتـاب العـبر) ، وبـين طريقته وأقسامه وختم هـذه الديباجـة بإهداء نسـخة عـن الكتـاب إلى أمـير المؤمنين أبي الفارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني ، وهي النسخة التـي أتم تحريرها بمصر ، وبعث بها إلى السلطان أبي الفارس عبد العزيز بن أبـي الحسن حوالي سنة/٧٩٩هـ (٢) .

ثانياً : المقدمة في فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلمـاع لمـا يعـرض للمؤرخين بـين المغـالط والأوهـام ، وذكـر شـئ مـن أسـبابها وتقـع في نحـو ثلاثين صفحة وعنوانها نفسه موضح لما تشتمل عليه (٣) .

ثالثـاً : الكتـاب الأول مـن الكتـب الثلاثـة ، هـو المعـروف المسـمى : "مقدمة ابن خلدون" في طبيعة العمران في الخليقة ، وما يعرض فيهـا مـن البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها ، ومـا

لذلك من العلل والأسباب ، ويقع في نحو ستمائة وخمسين صفحة ، ويشتمل على ما يأتي :

١- تمهيد يقع في نحو سبع صفحات (٤) ، تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه ، والأسباب التي دعته إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه ، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث .

٢- ستة بحوث رئيسية سميتها أبواباً تدرس ظواهر الاجتماع للإنسان الذي هو موضوع مقدمة ابن خلدون ، وهي :

الباب الأول : في العمران البشري على الجملة ، وفيه ست مقدمات : المقدمة الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري ، والثانية إلى الخامسة ، في بحوث جغرافية ، وأثر البيئة الجغرافية في ألوان البشر وأخلاقهم ، وطرق معاشهم ، والمقدمة السادسة في الوحي والرؤيا ، وفي أصناف المدركين للغيب من البشر والفطرة أو الرياضة ، وفي حقيقة النبوة والرؤيا والكهانة والعرافين (٥) .

الباب الثاني : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل ، وما يعرض في ذلك من الأحوال ، وفيه تسعة وعشرون فصلاً عرعياً (٦) ، و تعرض الفصول ، والعشرة الأول من هذا الباب الشعوب البدوية ونشأتها ، وبعض شؤنها الاجتماعية أو أصول المدنيات ، وتعرض الفصول التسعة عشر الأخيرة طائفة من نظم الحكم والسياسة المتعلقة بالشعوب البدوية وغيرها ، ويقع هذا الباب الثاني كله في نحو أربعين صفحة (٧) .

الباب الثالث : في الدول العامة و الملك و الخلافة و المراتب السلطانية ، وفيه أربعه وثلاثون فصلاً فرعياً بحسب طبعة البيان للمقدمة ، تدور جميعها حول نظم الحكم وشئون السياسة ، ويقع هذا الباب كله في نحو مأتي صفحة (٨) .

الباب الرابع : في البلدان والأمصار وسائر العمران ، ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً فرعياً تعرض نشأة المدن والأمصار ومواطن التجمع الإنساني ، وما تمتاز به المدن عن غيرها من مختلف الوجوه العمرانية و الاجتماعية والاقتصادية واللغوية ، ويقع هذا الباب في نحو أربعين صفحة (٩) .

الباب الخامس : في المعاش و وجوهه من الكسب والصنائع ، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ، ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلاً فرعياً ، ويقع في نحو/ ٥٠ صفحة (١٠) .

الباب السادس : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه ، وسائر وجوهه ، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ، ويشتمل على واحد وستين فصلاً فرعياً ، تعرض مختلف فروع العلوم والفنون والأدب ، ونظم التربية والتعليم .. وما إلى ذلك ، ويقع هذا الباب في نحو/ ٢٢٠ صفحة (١١) .

☆ موضوع مقدمة ابن خلدون : إن واقعات العمران البشري أو "أحوال الاجتماع الإنساني" ، هي الظواهر الاجتماعية وموضوع المقدمة ، وتنقسم هذه الظواهر أقساماً متعددة باعتبارات مختلفة ، منها النظم العائلية التي تتعلق بشئون الأسرة وتنسيق العلاقات التي تربط أفرادها بعضهم ببعض ، وتربطهم بغيرهم وتحدد حقوق كل منهم و واجباته ، وذلك كنظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث .. وما إلى ذلك .

ومنها النظم السياسية التي تتعلق بشئون الحكم والدولة ، وتنسيق سلطاتها وتحديد اختصاصات كل سلطة منها وحقوقها و واجباتها وصلتها بالسلطات الأخرى وبالأفراد والعلاقات التي تربط الدولة بما عداها .. وهلم جرا (١٢) .

ومنها النظم الاقتصادية التي تتجه إلى شئون الثروة في المجتمع وتحدد طرائق إنتاجها وتداولها وتوزيعها واستهلاكها وما يتصل بذلك ، ومنها النظم القضائية التي تشرف على شئون المسئولية والجزاء وإجراءات

التقاضي ، وما يدخل تحت هذه الأبواب (١٣) .

ومنها النظم الخلقية التي تعنى بتمييز الفضيلة من الرذيلة ، والخير من الشر ، وتحدد ما ينبغي أن يكون عليه السلوك والتفكير ، حتى يأتيا مطابقين للأسس التي ارتضاها العرف الخلقي في المجتمع .

ومنها النظم الدينية التي تتعلق بالعقائد وفهم العالم القدسي ، وما وراء الطبيعة ، وجميع ما تشتمل عليه الديانة التي يسير عليها المجتمع من قواعد وتعاليم .

و منها النظم اللغوية التي تتعلق بطريقة التفاهم بين أفراد المجتمع ، ونقل أفكارهم بعضهم إلى بعض ، وتسجيل منتجات القرائح ، وما يصل إليه التفكير (١٤) .

ومنها النظم التربوية التي تتعلق بالطرف التي يسير عليها المجتمع في تكوين الجيل الناشي ، وإعداده للحياة المستقبلة .

ومنها النظم الجمالية التي يترسمها المجتمع في شئون الجمال ، ومظاهر الفن من أدب وشعر ، وموسيقي وغناء وتصوير .. وما يتصل بهذه الشئون .

ومنها النظم للبيئة الاجتماعية أو نظم التكتل أو ما تسميه مدرسة دُور كليم Durkheim بالنظم "المورفولوجية" ، التي تنظم الطريقة التي يتجمع بها الأفراد بعضهم مع بعض كالقواعد التي تنجم عنها ظواهر التكالف والتخلخل في السكان بالنسبة للمساحة التي يشغلونها ، وكالقواعد التي تنظم شئون الهجرة من القرى إلى المدن ، ومن المدن إلى القرى ، ومن الدولة إلى خارجها (١٥) .

وإذا نظرنا إلى الظواهر الاجتماعية من ناحية علاقتها بالتفكير والعمل ظهرلنا أنها تنقسم قسمين :

أحدهما : يتمثل في قواعد تشرف على التفكير الإنساني .

والثاني : يتمثل في قواعد تشرف على العمل الإنساني كالقاعدة التي توجب على من يريد الزواج أن يتعاقد في صورة خاصة مع الطرف الآخر ، الذي يريد الاقتران به (١٦) .

وإذا نظرنا إليها من ناحية استقرائها وتطورها ظهر لنا أنها تنقسم كذلك قسمين :

أحدهما : يتمثل في نظم ثبتت واستقرت ، وأصبحت جزءً من شريعة المجتمع كالنظم العائلية والسياسية والقضائية والدينية والخلقية التي يسير عليها المجتمع بالفعل .

ويتمثل الأخرى في تيارات تطورية لم تستقر بعد ، ولكنها تشق طريقها نحو الثبات والاستقرار ، فهذه الزوايا السابقة ، هي أهم زوايا النظم في هذه الظواهر (١٧) .

☆ أغراض المقدمة لابن خلدون : يرمي ابن خلدون في مقدمته من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها ومن يعرض لها من أحوال .

تطلق كلمة القوانين في العرف العلمي على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والمقدمات بنتائجها اللازمة (١٨) .

فما يقره علماء الطبيعيات والرياضيات من القواعد التي تبين علامة السببية اللازمة بين أمرين أو أكثر يصدق عليه اسم القوانين ، و ذلك كقانون الجذب العام ، وقانون ارشميدس ، وقانون بويل في الطبيعيات ، وكقانون الربح ، وتساوى المثلثين ، وضرب عدد في الرياضيات .

ومع ارتقاء الفكر الإنساني أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر لقوانين ثابتة يتسع نطاقه قليلاً قليلاً ، حتى شمل جميع نواحي الطبيعة ، وجميع مظاهر الحياة ، وحفز الباحثين على إنشاء علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والجغرافيا ، وعلم الحياة (البيولوجيا) ، وما علم الحيوان ، وعلم النبات ،

وعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) ، وما إلى ذلك من البحوث التي لم تغادر ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، ولا ناحية من نواحي النمو إلا كشفت عما يسيطر عليها من قوانين .

وفي أثناء ذلك ، بل من قبل ذلك فطن الإنسان إلى القوانين التي يخضع لها الكم من حيث أنه مقيس أو معدود ، فأنشئت علوم الرياضة من حساب ، وهندسة وجبر وحساب مثلث .. وهلم جرًا .

أما الظواهر الاجتماعية فإنه لم يفطن أحد من قبل ابن خلدون إلى جبرية حوادثها وخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضية ، وبالتالي لم يعن أحد من قبله بالكشف عن هذه القوانين (١٩) .

[للحديث بقية]

---

(١) مقدمة ابن خلدون حسب طبعة لجنة البيان العربي في ١٣/صفحة .

(٢) عبقريات ابن خلدون : ص/١٨٠ .

(٣) تقع هذه وما عليها من تعليقات في ٤٧/صفحة في طبعة لجنة البيان العربي : صفحات/٣٦٢-٤٠٨ .

(٤) يقع هو وما عليه من تعليقات في ١١/صفحة في طبعة لجنة البيان العربي/٤٠٩-٤١٩ .

(٥) ويقع هذا الباب في نحو ٥٤/صفحة في طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان - بيروت ، حارة حريك شارع ، عبد النور : ص/٥٤ - ١٤٩ .

(٦) مقدمة ابن خلدون في طبعة درا الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : ص/١٤٩ .

(٧-٨) يقع هو وما عليه من تعليقات في ٣٢٠/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(٩) يقع هو وما عليه من تعليقات في٦٠٣/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(١٠) يقع هو وما عليه من تعليقات في٨٠/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(١١) يقع هو وما عليه من تعليقات في نحو ٤٠٠/صفحة من طبعة البيان للمقدمة .

(١٢-١٣-١٤-١٥) عبقويات ابن خلدون : ص/١٨٤ .

(١٦-١٧) المصدر السابق/١٨٥ .

(١٨) المصدر السابق ص/١٨٧ .

(١٩) المصدر السابق ص/١٨٨ .

دراسة موجزة

عن مقدمة ابن خلدون

(٢/الأخيرة)

بقلم : الأستاذ محمد يوسف
المحاضر في القسم العربي ، جامعة داكا - بنغلاديش

كان أقدم من وجه نظر الغربيين إلى مقدمة إبن خلدون ، فقد نشر مستشرق فرنسي دربلو (1690-1665 d' Herbelat) في أواخر القرن السابع عشر في المكتبة الشرقية "d, Herbelat Biblir Theque Drintate" مقالاً يتضمن بعض معلومات عن ابن خلدون ، وبعض مقتطفات من مقدمته .

ولم تظهر بعد ذلك من علماء الغرب عناية بابن خلدون ، ولا اهتمام بدراسة بحوثه في المقدمة إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، فقد أخذ حينئذ بعض علماء الاستشراق ينشرون بحوثاً مطولة عن ابن خلدون ومقدمته ، ويقدمون نماذج مترجمة عن دراساته ، ويكشفون عن مبلغ أصالتها وعمقها في علاج مسائل الاجتماع ، وكان على رأس هؤلاء ثلاثة من كبار المستشرقين ، وهم سلفستر ديساسي الفرنسي "Dsaac, Sylvstredusacy" ، وفون هامر النمساوي "Von Hammer Purgstall" ، وشولتز "Sohuly" فقد نشر سلفستر ديساسي سنة ١٨٠٦م ترجمة فرنسية لما كتبه ابن خلدون في المقدمة عن البيئة ، وشارات الملك ، ولما ذكره في الفقرة الأخيرة من فاتحة كتابة ، وفي سنة ١٨١٠م ، نشر ترجمة لفصول أخرى من المقدمة (٢٠) .

وفي منتصف القرن التاسع عشر قام المستشرق الفرنسي كاترمير "Quatremere" بطبع المقدمة باللغة العربية وظهرت كاملة في ...

أي في السنة نفسها التي ظهرت فيها أول طبعة للمقدمة في مصر ، وكان في نية كاترمير أن يترجمها كذلك إلى الفرنسية ، وأنجز بالفعل ترجمة بعض أجزاء منها ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يكمل مشروعه .

وقد تبني هذا المشروع من بعده المستشرق الفرنسي دوسلان "Dislane" فترجم المقدمة كلها إلى اللغة الفرنسية ، وعلق على بعض فقراتها، وشرح بعض عباراتها ، ومهّد لها ببحث طويل في التعريف بابن خلدون ، وعمل دوسلان في ترجمته هذه على التميز بين عناوين البحوث الستة الرئيسية في المقدمة ، وعناوين الفصول الفرعية المنشعبة من كل بحث منها .. فعنوان للبحوث الرئيسية بكلمة : "قسم" بدلاً من كلمة : "فصل" التي استخدمها المؤلف ابن خلدون ، وطبعت هذه الترجمة وملحقاتها في ثلاثة مجلدات ، ظهر أولها سنة ١٨٦٢م ، وظهر آخرها سنة ١٨٦٨م .

وقد وضعت هذه الترجمة مقدمة إبن خلدون في متناول جميع العلماء والمفكرين في الغرب بعد أن كان إمكان الاطلاع عليها هناك مقصوراً على طائفة المستشرقين .

وأتاحت للمشتغلين ببحوث علم الاجتماع معرفة قدرها ، وإنزالها المنزلة اللائقة بها في هذه البحوث ، بعد أن كان مجهولة المكانة من هذه الناحية ، لأن معظم المستشرقين الذين كانوا يستطيعون قبل ذلك الاطلاع عليها في نصها العربي كانوا بعيدين عن هذا العلم (٢١) .

وإن آثار مقدمة ابن خلدون تغيرت آراء علماء الغرب فيما يتعلق بمنشأة العلوم الاجتماعية ، وتاريخ هذه النشأة ، فقد كانوا يزعمون مثلاً أن فيكو (Vico) مع أن هو أول من بحث في "فلسفة التاريخ" ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بعدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وأنه قد أقام دراسته لتطور الحضارة الإنسانية أي لما يسمونه : "فلسفة التاريخ" على دعائم علمية قوية ، وكانوا يدعون أن أوغسط كونت

"Auguste Conte" ، هو أول من أنشأ علم الاجتماع ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بعدة تزيد على أربعة قرون ونصف قرن ، وبطرق ومناهج مبرأة من عيوب الطرق التي لجأ إليها أوغسط كونت ، ومن مساوي مناهجه (٢٢) ، و وجدوا كذلك أن كثيراً من الآراء والمبادئ التي قال بها المحدثون من علماء الاقتصاد ، وفلسفة القانون ، والفلسفة السياسية كالفيزيوكرات ، وآدم سميث ، وجان باتيست ساي ، ومنتسكيو و جان ، و جاك ، و روسو ، و غيرهم ، قد سبقهم إليها ابن خلدون في مقدمته (٢٣) .

وكان من آثار ذلك أيضاً أن تعددت البحوث عن ابن خلدون وعن مقدمته حتى لقد تألف منها في مختلف مكتبات الغرب مجموعة من أوسع المجموعات ، وترجع هذه البحوث إلى طائفتين رئيسيتين :

إحداها : تتمثل في دراسات قائمة بنفسها عن ابن خلدون ظهر بعضها في صورة كتب ، وبعضها في صورة رسائل ومقالات ، نشرت في مجلات علمية .

فمن أهم ما ظهر عن هذه الطائفة في صورة كتب المؤلفات بعض منها : "Bouthoul (Gaston) : Ibn Khaldoun et sa Philosophie Sociale" ، وقد ترجمه إلى العربية المرحوم عادل زعيتر تحت عنوان : ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية وغير ذلك .

ومن أهم ما ظهر من هذه الطائفة في صورة مقالات بعض منها :

= Colosio (s) Contribution a L,etude d, Ibn Khaldun (Revue du Monde Musulman xxvi,1914).

= Gumplowicy (L) : Ibn Khaldaoun ein rabischir Sovjealoge dis 14 Jahrhunderts,in Socilogische Essays.

والثانية : تتمثل في فقرات أو فصول مخصصة لابن خلدون ومقدمته وآرائه في ثنايا الكتب الباحثة في الفلسفة الإسلامية ، أو التاريخ ، أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ، أو تاريخ هذه العلوم ، أو في ثنايا دوائر المعارف ،

ومن أهم هذه البحوث مايلي :

= Brockelman dans : Greschichte der arabischen Letterature,11 .

= De Boer,Dans : Greschichte der Philosophie in Islam .

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة .

= Maunier,(Rane) dans : Introduction a ia Sociologie .

ترجمه إلى العربية الدكتور السيد محمد بدوي (٢٤) .

وقد حالف التوفيق بعض الباحثين من علماء الغرب في ابن خلدون ، فسجل عظمته ، وأصالة بحوثه ، وأسبقيته في إنشأ علم الاجتماع ، وأنزل مقدمته المنزلة الجديدة بها ، وإليك مثالاً من ذلك فيما كتبه سميث "N.Schmidt" في كتابه المشار إليه "ابن خلدون"مؤرخ اجتماعي وفيلسوف ، المطبوع سنة ١٩٣٠م ، إذ يقول : إن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون في حينها ، واستعانوا بالحقائق التي كان قد اكتشفها والطرائق التي سار عليها ذلك العبقري العربي قبلهم بمدة طويلة لا ستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم بما تقدموا به فعلاً .

وكذلك يقول : إن ابن خلدون قد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها "أوغسط كونت" نفسه في النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢٥) .

مع ذلك فإن عدداً غير يسير منهم قد جانبه التوفيق أو غلب عليه التعصب ، فخفيت عليه عظمة ابن خلدون ، وتخبط في نقده لنظرياته ، ولم يدرك ما في دراساته من أصالة وابتكار .

قد اتضح لنا من الدراسة عن ابن خلدون ومقدمته أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ سماها : "طبيعة العمران في الخليقة" ، ومؤسس علم الاجتماع ، وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما

كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة مما دل على سداد رأيه ، و صدق نظره ، وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل وغير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤها وآثارها .

☆ المصادر والمراجع :

(٢٠) عبقريات إبن خلدون : ص/١٨٠ .

(٢١) تقع هذه وما عليها من تعليقات في ٤٧/صفحة في طبعه لجنة البيان العربي صفحات/٣٦٢-٤٠٨ .

(٢٢) تقع هذه وما عليها من تعليقات في ١١/صفحة في طبعه لجنة البيان العربي : ص/٤٠٩-٤١٩ .

(٢٣) ويقع هذا الباب في نحو ٥٤ صفحة في طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، بيروت ، حارة حريك شارع ، عبد النور : ص/٥٤-١٤٩ .

(٢٤) مقدمة إبن خلدون في طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : ص/١٤٩ .

(٢٥-٢٦) يقع هو وما عليه من تعليقات في ٣٧٠/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(٢٧) يقع هو وما عليه من تعليقات في ٦٠٣/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(٢٨) يقع هو وما عليه من تعليقات في ٨٠/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(٢٩) يقع هو وما عليه من تعليقات في نحو ٤٠٠/صفحة في طبعة البيان للمقدمة .

(٣٠-٣١-٣٢-٣٣) عبقريات ابن خلدون : ص/١٨٤ .

(٣٤-٣٥) المصدر السابق : ١٨٥ .

(٣٦) المصدر السابق : ص/١٨٧ .

(٣٧) المصدر السابق : ص/١٨٨ .

(٣٨) المصدر السابق : ص/٢٦٩ .

(٣٩) المصدر السابق : ٢٨٠-٢٧٤ .

(٤٠) مقدمة ابن خلدون : ص/٢١١-٢٣٠ .

(٤١) مقدمة ابن خلدون ص/٢٠٨-٢١٠ .

(٤٢) عبقريات ابن خلدون ص/٢٧٣-٢٧٤ .

(٤٣) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، مطبعة المعارف بمصر ، سنة ١٩٥٣م : ص/٣٠٦-٣٠٧ .